بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 28 سبتمبر 2017

آليات اشتغال المتخيّل الإسلامي وخصائصه:
الفردوس والجحيم أنموذجاً

لطيفة كرعاوي
باحثة تونسية

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

آليَّات اشتغال المتخيّل الإسلامي وخصائصه:
الفردوس والجحيم أنموذجاً[1]

1- يمثّل هذا العمل الفصل الخامس من كتاب "الفردوس والجحيم في المتخيّل الإسلامي"، تأليف: لطيفة كرعاوي، منشورات مؤسّسة "مؤمنون بلا حدود" للدراسات والأبحاث، والمركز الثقافي العربي بالدار البيضاء، ط1 2014.

الملخّص:

يأتي هذا الفصل بعد أن نظرت المؤلّفة، في الفصول السابقة من كتابها، في مباحث مهمَّة هي على التوالي: العالم الآخر في المتخيّل الكوني، جغرافيا الفردوس وجغرافيا الجحيم في المتخيّل الإسلامي. وإذا ما تمَّ لها ذلك جميعه خصَّصتْ الفصل الخامس هذا لدراسة آليَّات اشتغال المتخيّل الإسلامي في موضوع الفردوس والجحيم أوَّلاً، وخصائص ذلك المتخيّل ثانياً.

فبخصوص آليَّات اشتغال المتخيّل الإسلامي، تبيّنت المؤلّفة، تعويلاً على ما توفَّر لديها من أخبار في مدوّنتها المصدريَّة، وجود ثلاث آليَّات تمَّ توظيفها في تشغيل المتخيّل الإسلامي وهي: آليَّة التضخيم (مثلاً تضخيم صورة جهنَّم تاريخيَّاً ممَّا من شأنه أن يولّد الشعور بالتشاؤم والترهيب)، وآليَّة التـأويل (تأويل مفردات قرآنيَّة غير مجمع على معانيها مثل «الزقوّم» و«صعود»)، وآليَّة تلفيظ الصمت (سكوت القرآن عن الكلام على الحيوانات في العالم الآخر وتدخّل الرُّوَاة لإنطاق ما صمت عنه النصّ الديني).

أمَّا القسم الثاني من هذا الفصل فمداره على تعيين أهمّ خصائص المتخيّل الإسلامي المتعلّق بالفردوس والجحيم. وقد توصَّلت المؤلّفة إلى رصد خمس خصائص لذلك المتخيّل هي على التوالي: المتخيّل التسريدي (الكلام، من خلال خطاب أدبي سردي، على أحداث لم تقع بَعْدُ هي من إنتاج الإنسان الدّيني)، والمتخيّل التشخيصي (تحويل الأفكار القرآنيَّة المجرَّدة إلى قصص قائمة على التشخيص قصد الإقناع والتأثير في المتقبّل)، والمتخيّل التعويضي (الحضور المكثّف للنِعَم الحسيَّة والملذّات من نساء وجنس ممَّا يحقّق لدى طالب الفردوس إشباعاً نفسيَّاً وتحقيقاً لرغبات حُرِم منها في الحياة الدنيا)، والمتخيّل الوعظي (عطف القلوب على الأخلاق الفاضلة)، والمتخيّل التناصّي (التفاعل والتقاطع بين نصوص القرآن والحديث النبويّ ومنتجات المتخيّل الجمعي الحامل لرواسب ثقافة ما قبل الإسلام).

مقدّمة

نجح المتخيّل من خلال ما رأيناه في مختلف الفصول السابقة ببناء عوالم لا تخوم تحدّها، فهو ينفذ نحو الأعماق ويجنح نحو الأعالي متجاوزاً القمم، ولا نبالغ إذا قلنا إنَّ الرغبة هي «ديناموـ» المتخيّل الدنيوي والأخروي على حدٍّ سواء، ويتجلى ذلك في مختلف علاقاتها بالجسد، بدءاً من الاغتسال في العين العجيبة قبل دخول الفردوس، وصولاً إلى رؤية الله، ومروراً بكلّ النعم التي فصَّلنا فيها القول، والتي لم نفصّل أيضاً، ويتجلى كذلك في مختلف أبعاد الإنسان الوجوديَّة، إذ الرغبة الحقيقيَّة هي في الاطمئنان إلى أنَّ الموت ليس نهاية فحسب، بل بداية جديدة أيضاً، وبذلك يشعر الإنسان بالطمأنينة الروحيَّة وبمعنى الوجود. على هذا النحو، يمكن القول إنَّ الإنسان كائن رغبة[1]، وما تجربته الوجوديَّة سوى سعي دؤوب لتحقيقها. ثمَّ إنَّ نشاط المتخيل في وجوهه وحالاته وأشكاله كلها، إنَّما هو سليل الرغبة «أي البحث عن كلّ ما لا يستطيع الإنسان إشباعه في نفسه أو في عقله»[2]. سنحاول في ضوء هذا رصد آليَّات اشتغال المتخيَّل الإسلامي في إنتاجه الصور، ثمَّ نتبيَّن خصائصه.

1. آليَّات اشتغال المتخيّل الإسلامي

1.1. التضخيم (Gigantisation)

يعمد المتخيّل إلى تضخيم الخبر وتحريفه. ونعني بالتضخيم تضخّم أحداث الخبر الواحد، وقد أضيف إليه العديد من التفاصيل وطرأت عليه الكثير من التغيرات. ولإبراز ذلك سنعقد مقارنة بين مصدرينا، فصورة جهنم مضخّمة لدى ابن أحمد القاضي أكثر منها لدى السيوطي، رغم أنَّ الأوَّل أسبق زمنياً، في حين أطنب السيوطي في وصف نِعَم الفردوس، وانفرد بوصف استزارة الله لمحمَّد وأمَّته وسائر الأمم. فيما عدا هذا يتشابه الكتابان تشابهاً كبيراً منذ الفاتحة في المتن والمنهج والأسلوب إلى حدٍّ يسمح بالقول إنَّنا إزاء روايتين لكتاب واحد (ولنا إلى هذه المسألة عودة).

وإذا قارنَّا بين صورة الجحيم في **معراج** ابن عباس (تـ 68هـ/687م)[3] وصورتها في **الدقائق** نلاحظ تطوُّراً في مسائل مهمَّة، إذ طبقات الجحيم السبع والحديث عن سكانها وهم اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم، ووصف الزبانية والحديث عن شارب الخمر وتجسيد جهنَّم ووصف مذنبي أمَّة محمَّد والحديث

1- يقول باشلار في هذا الإطار:

«L'homme est une création du désir, non pas une création du besoin», La psychanalyse du feu, op. cit, p. 34.

2- محمَّد أركون، **الفكر الإسلامي قراءة علميَّة**، م. م، ص 243.

3- انظر ابن عباس، **الإسراء والمعراج**، مكتبة المنار، تونس، د. ت، ص 17-23.

عن شفاعة النبي للعصاة من أمَّته، لا ذكر هذا كله في **المعراج**. أمَّا نِعَم الفردوس فلئن عدَّدها **المعراج**، إلَّا أنَّ وصف السيوطي لها كان مطوَّلاً وقد انفرد بحدث الاستزارة.

ومتى عقدنا مقارنة بين ما أورده السيوطي في **درره**[4]، وهو يذكر خبر ضيافة الله لمحمَّد وأمَّته وسائر الأنبياء والأمم وعليه مدار أحداث الفردوس، وبين ما أورده المحاسبي (ت 243هـ/857م) في **التوهم**[5]، وهو يصف لنا استزارة الله لأهل الجنَّة، وقفنا على اختلافات كثيرة:

التوهم	الدرر
يستزير الله أهل الجنَّة	يستضيف الله محمَّداً صلى الله عليه وسلم وأمته
مكان الضيافة مجهول	مكان الضيافة: حظيرة القدس
وصف نجب الجنة	وصف جنة حظيرة القدس
	حوار بين جبريل وملك + وصف جبريل وهو ينقل حظيرة القدس من مكانها ليضعها تحت العرش
	مخاطبة جبريل محمَّداً لدعوته مجدّداً للضيافة هو وأمَّته وسائر الأنبياء والرسول، **ويخصّ** الله محمَّداً بالتحيَّة والإكرام
لا حديث عن **النبي**: وصف الموكب والنجائب بشكل عام	وصف الموكب الذي اتجه إلى حظيرة القدس مع التركيز على تميز النجيب الذي يمتطيه **النبي**
	وصف كثرة القصور والنعم
تنحَّت الأشجار عن طريق أولياء الله	تكلم الأشجار بعضها بعضاً: «تنحوا عن طريق وفد رسول الله»
اقتراب الموكب من فحصة عرش الرحمن	وصول الموكب حظيرة القدس
وصف وليمة الأكل ثم يأتي الحديث عن الشراب: «قال الجليل لملائكته: اسقوهم [...]، قال الجليل: اكسوا أوليائي [...]، ثم أمر الجليل تبارك وتعالى أن طيبوهم [...]». تطييب أهل الجنة: يمطر السحاب طيباً	وصف وليمة الأكل والشراب والوصف مطول. وصف الدور العجائبي للشراب، فإذا شربه المؤمنون انهضم كلُّ شيء. الرسول يأكل من جهة تكريماً وتشريفاً والأنبياء يأكلون من جهة أخرى+ «فكهوا عبادي»، «اكسوا عبادي»، «خلخلوا عبادي»، «ختموا عبادي»، تطييب أهل الجنة: غمست طيور الجنة في المسك والعنبر والطيب، ثمَّ رفرفت على رؤوسهم

4ـ تبدأ أحداث الضيافة من الصفحة 30 إلى آخر صفحة في المصدر.

5ـ تبدأ أحداث الزيارة من الصفحة 94 إلى الصفحة 108.

	الحديث عن مجلس طرب في الفردوس
	صعود كلّ نبي درجة من درجات منبر عظيم وصعود النبي درجة **الوسيلة**.
	خطبة كلّ نبي في أمته وتميز محمَّد على بقية الأنبياء
	تكفير من لا يقرّ برؤية الله في الآخرة
	دوام ضيافة الله لعباده مئة ألف عام
	يستضيف النبي المؤمنين آلاف السنين، ثمَّ يستضيفهم أبو بكر فعمر بن الخطاب وأخيراً عثمان بن عفان
	لا عبادة في الآخرة.

غاب خبر الضيافة في **دقائق الأخبار** رغم أنَّه موجود في مؤلف المحاسبي الأقدم منه زمنياً، أمَّا المنزع الاستعلائي التمجيدي للنبي وأمَّته الذي لاحظناه في مصدرينا، فلا أثر له في **التوهم**، وبالمقابل يحضر هذا المنزع بشكل مكثف في **معراج** ابن عباس، الأمر الذي يثير الاستغراب والتساؤل: ثمَّة أسباب مقنعة لا بدَّ أن تبرّر لنا الحديث عن تلك المحوريَّة زمن الرَّسول بالذات، فإن كنا نجد مبررات لذلك زمن ابن أحمد القاضي أو زمن السيوطي، فإنَّنا لا نجد مبررات لذلك زمن النبي وهو بعد في مكة، لأنَّ المسائل المطروحة آنذاك هي مشاكل من قبيل تصديق النبوَّة ونشر الدعوة، إذاً ما من مبرّر للحديث عن أفضليَّة النبي وأفضليَّة أمَّته، إذ لا وجود لأمَّة أصلاً آنذاك، ولعلَّ هذا من شأنه أن يدعم فكرة أنَّ **معراج** ابن عباس منحول.

تضخَّمت صورة جهنم تاريخيَّاً، وما يمكن استنتاجه هو تنامي النزعة التشاؤميَّة وتنامي نزعة الترهيب والترغيب التي سادت في عصور الانحطاط، ومثلما ولّدت الانكسارات المتتالية للدولة الإسلاميَّة والمحن المختلفة التي مرَّت بها شعوراً بالحاجة إلى فرض الذات أمام الآخر الذي يتهدَّدها، ولدت أيضاً الحاجة إلى الإحساس بالسكينة الروحيَّة؛ في مثل هذا الظرف العصيب تزدهر بضاعة المتخيّل الدّيني الذي يصوغ تصوُّرات تتعلق بنهاية العالم واقتراب الساعة، وتصوُّرات أخرى تعبّر عن قلق الجماعة المسلمة وهواجسها؛ فإذا ما ربطنا هذا بالمرحلة التاريخيَّة التي عاش فيها الكاتبان (القرن السادس للهجرة والقرن التاسع وبداية القرن العاشر) أمكننا أن نفهم لماذا تضخَّمت صورة جهنَّم، ولماذا تمَّت أسلمة الفردوس ورمي المخالفين في الجحيم، وكيف تصبح الرموز الدينيَّة والدّين بصفة عامَّة خلاصاً للشعوب عند الشدائد.

والجدير بالذكر أنَّ الأحداث والتفاصيل تختلف أيضاً وتتلوَّن إذا ما رمنا توسيع دائرة المقارنة لتشمل مصنفات أخرى، إذ يحدثنا القرطبي (ت 671هـ/1272م) في **التذكرة** مثلاً عن جبال جهنَّم وخنادقها وأوديتها وبحارها وصهاريجها وآبارها وجبابها وتنانيرها وسجونها وبيوتها وجسورها وقصورها[6].

وفضلاً عن ذلك يمكن القول إنَّ للتضخيم وجوهاً كثيرة، من ذلك تضخيم الهيئة والعدد، ونأخذ مثالاً على ذلك ما يلي: «يؤتى بجهنَّم يوم القيامة وحولها سبعون ألف صف من الملائكة، كلّ صف أكثر من الثقلين يجرّونها [...] ولجهنم أربع قوائم ما بين كلّ قائمة ألف عام ولها ثلاثون رأساً وفي كلّ رأس ثلاثون ألف فم وفي كلّ فم ثلاثون ألف ضرس وفيّ كل ضرس مثل جبل أحد ألف مرَّة».[7] هذه الأعضاء مألوفة ما ييسر للمتقبل إمكانيَّة تمثلها، إلا أنَّ تضاعفها داخل الجسد الواحد يجعل من الجحيم كائناً عجيباً ومرعباً. وتضخيم الهيئة على هذا النحو من تكاثر الأعضاء وتعاظم الجسد صفة تنطبق على كلّ مكوّنات الجحيم، مثل الزبانية والعقارب والحيَّات، وقد أشرنا إلى ذلك في الفصل الرابع، وهذا ما يحقق الوظيفة الترهيبيَّة.

وإذا كان الباحث بسام الجمل قد اعتمد على تقنية التوليد والتركيب، باعتبارها من تقنيات اشتغال المتخيل الإسلامي، مستشهداً بمثال ينطبق في مواصفاته على مثالنا هذا[8]، فإنَّنا نعتقد أنَّ ذلك ما هو إلا شكل من أشكال التضخيم في الهيئة والعدد، فضلاً عن ذلك ذكر الباحث أنَّ آليَّة التركيب والتوليد يعوَّل عليها عادة لوصف الكائنات العجيبة والغريبة[9]، إذ بالإضافة إلى ما ذكره يعوّل عليها أيضاً في وصف كلّ ما هو عجيب بشكل عام يتجاوز وصفه حدود العقل على غرار وصف فضاء عجيب من شأنه أن يوظف ترغيباً أو ترهيباً، وحسبنا المثالان التاليان:

المثال الأول: ذكره السيوطي وهو يصف نِعَم الفردوس: «في كلّ قصر غرفة مشرقة، لكلّ غرفة سبعون باباً [...] على كلّ باب من تلك الأبواب شجرة ساقها من المرجان، لكلّ شجرة سبعون ألف غصن، وفي كلّ غصن سبعون ألف لؤلؤة».[10]

و**المثال الثاني**: قول نسب إلى النَّبي وهو يصف الجحيم، جاء فيه: «فرأيت فيها سبعين ألف بحر من غسلين وسبعين ألف بحر من غساق وسبعين ألف بحر من قطران وسبعين ألف بحر من رصاص مذوَّب، على ساحل كلّ بحر ألف مدينة من نار، في كلّ مدينة ألف قصر من نار، في كلّ قصر سبعون ألف تابوت من

6- للتوسع انظر **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**، تحقيق محمَّد عبد القادر عطا، دار التقوى للتراث، القاهرة، د.ت.

7- **دقائق الأخبار**، ص 35. ذكر السيوطي: «وهي (أي الجحيم) تهب وتريد أن تلتقط أهل الموقف والملائكة يجذبونها»، **الدرر الحسان**، ص 24.

8- انظر كتابه **ليلة القدر في المتخيل الإسلامي**، م.م، ص ص 84-85.

9- انظر المرجع نفسه، ص 84.

10- **الدرر الحسان**، ص 41.

نار، في كلّ تابوت سبعون ألف صندوق من نار، في كلّ صندوق سبعون ألف صنف من العذاب».[11] وتجسيد الجحيم على هذا النحو استند بالأساس إلى تأويل معيَّن لآيات قرآنيَّة، كان فيها وصف الجحيم متراوحاً بين فضاء وكائن مخيف، من ذلك قوله تعالى: (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً)[12] فمن هذه الآية استنتج المسلمون أنَّ الجحيم كائن فعلاً[13].

2.1. التأويل

يبدأ المتخيّل نشاطه التأويلي عندما يصطدم بمفردات مبهمة وغامضة وردت في **القرآن**، فيعمل على فكّ طلاسمها. ويعتبر الاختلاف، وهو نتيجة تعدُّد التأويلات، من المجالات التي يبرز فيها نشاط المتخيّل. ولأنَّ الاختلاف يحدث الالتباس في المفاهيم والصور، فإنَّ مفسّري **القرآن** قد اختلفوا في معاني مفردات كثيرة[14]، ونستدلُّ على ذلك بعبارات وردت في مصدرينا (وقد انتصر المؤلفان لمعانٍ بعينها) على غرار: **الزقوم، صعود، ويل**، وسنبيّن من خلالها كيف كان تعامل المفسّرين مع العبارات المبهمة في **القرآن**، حيث لا يعدو اجتهاد كلّ طرف أن يكون بناءً خياليًّا خاصًّا به.

تراوح معنى الزقوم في مدونتنا، مثلما أشرنا إلى ذلك في الفصل الرابع، بين طعام وبين شجرة في أعلاها نار. وقد ورد ذكر الزقوم في آيات عديدة[15]، واختلف المفسّرون فيما إذا كان شجرةً واحدةً معيَّنةً تمتدُّ فروعها إلى جميع محال الجحيم مثل شجرة طوبى في الفردوس، أم إنَّ المراد منها جنس شجرٍ يُسمَّى الزقوم[16]، مثلما جاء في قوله تعالى: (ثمَّ إنَّكُمْ أيُّهَا الضَّالونَ المُكَذِّبُونَ لآكِلونَ مِنْ شَجَر مِنْ **زَقّوم**). واختلفوا

11- **معراج** ابن عباس، م.م، ص 17، والمتحدث هو النبي واصفاً الجحيم.

12- للتوسع الفرقان 12/25.

13- على هذا النحو لا نجد مبرراً لما قاله أحمد محمَّد شاكر. فقد ذكر صاحب مقال "جهنم" في **موجز دائرة المعارف الإسلامية** أنَّ "تصور جهنم على هيئة الحيوان ليس هو الغالب في **القرآن**" فعلّق شاكر في الهامش: "بل هو لا يوجد في **القرآن** ولا في شيء ممَّا يعرف المسلمون" (**موجز دائرة المعارف الإسلاميَّة**، م.م، ج 11، ص 3255). فإذا كان صاحب المقال قد أخطأ في فهم معاني **القرآن** فإنَّ المفسرين هم من ذهبوا إلى تصوُّر الجحيم كائناً مخيفاً قبل غيرهم، فابن كثير مثلاً لا يتردَّد في تأكيد ذلك مستشهداً بالقول التالي: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يقل عَلَي ما لمْ أقل أو ادعى إلى غير والديْه أو انتمى إلى غير مواليه فليتبوأ بين **عيْنيْ** جهنم مقعداً. قيل يا رسول الله: **وهل لها من عينيْن؟** قال: أما سمعتم الله يقول: (إذا **رأتْهمْ** منْ مكان بعيدٍ)" (**تفسير ابن كثير**، م.م، ج 6، ص 2540)، وعن ابن عباس قال: «إنَّ العبد ليجر إلى النار فتشهق إليه شهقة البغلة إلى الشعير ثم تزْفر زفرةً لا يبقى أحد إلا خاف»، المصدر نفسه، ص 2541.

14- اختلف المفسّرون في مفردات عديدة في **القرآن** مثل: الفلق (الفلق/1) قيل فيه: الصبح، الخلق، بيت في جهنم، جب في قعر جهنم، من أسماء جهنم، انظر **تفسير ابن كثير**، م.م، ج 8، ص 3907-3908. واختلفوا في معنى العقبة (البلد/11-12) قيل فيها: جبل في جهنم، سبعون درجة في جهنم، عقبة في جهنم، قُحْمَة شديدة (القحمة الأمر العظيم الشاق)، انظر المصدر نفسه، ج 8، ص 3781. واختلفوا في معنى الموْبق (الكهف 52/18) قيل فيه: المهْلك، وادٍ في جهنم، واد عميق فُرِقَ به يوم القيامة بين الكفار والمؤمنين، وادٍ في جهنم من قيح ودمٍ، العداوة، المصدر نفسه، ج 5، ص 2172.

15- (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إلا **فِتْنَة** لِلنَّاس وَ**الشَّجَرَة الْمَلْعُونَة** فِي الْقُرْآن وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إلا طُغْيَانًا كَبِيرًا) الإسراء 17/60. (أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ **شَجَرَةُ الزَّقُّومِ**، إنَّا جَعَلْنَاهَا **فِتْنَة** لِلظَّالِمِينَ، إنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِين، فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ، ثُمَّ إنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ، ثُمَّ إنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ) الصافات 37/62-68. (إنَّ **شَجَرَة الزَّقُّوم، طَعَامُ** الأَثِيمِ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُون، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ، خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إلى سَوَاءِ الْجَحِيمِ، ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ) **الدخان** 44/43-48. (ثُمَّ إنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالونَ المُكَذِّبُونَ، لآكِلونَ **مِنْ شَجَر مِنْ زَقّوم**، فَمَالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطونَ، فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ، فَشَارِبُونَ **شُرْبَ الهيم**) الواقعة 56/51-55، (**شُرْبَ الهيم:** مفردها أهيَمُ والأنثى هيماء، ويقال هائم وهائمة، والهيم الإبل العِطاشُ الظِّماء، وقيل الإبل المِرَاض، تمصّ الماء مصاً ولا تروى وكذلك أهل الجحيم لا يرْوَون من الحميم أبداً، انظر **تفسير ابن كثير**، م.م، ج 7، ص 3405).

16- انظر المصدر نفسه، م.م، ج 7، ص ص 2976-2977.

أيضاً في المراد بالزقوم فقيل: «**ضرب من الحيَّات**، رؤوسها بشعة المنظر. وقيل **جنس من النبات**، طلعه في غاية الفحاشة»[17]، وقيل أيضاً إنَّ المراد بالشجرة الملعونة **بنو أميَّة**، إذ روي أنَّ الرسول رأى «**بني فلان** ينْزون على منبره نَزْوَ القرود فساءه ذلك».[18]

يستنتج ممَّا تقدَّم أنَّ صورة الزقوم غير واضحة في أذهان المفسّرين القدامى. ويذكر ابن كثير موقف «أهل الضلالة» والعبارة له، فقالوا: «صاحبكم ينبئكم أنَّ في النار شجرةً، **والنار تأكل الشجر**، فأنزل الله: (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ) غذيت من النار ومنها خلقت»[19]، وموقف «أهل الضلالة» يستند إلى نظام معيَّن من الإدراك والتصوُّر، فما من شيء محسوس أو مرجع دنيوي يساعدهم على تمثل صورة جديدة لشجرة عجيبة مخالفة لتلك التي ألفوها، فالمخاطب لا يعرف الزقوم ويستحيل عليه تمثله، و**القرآن** واع بذلك فاعتمد التشبيه ليقرّب الصورة إلى الأذهان، لهذا قال: (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ)، ولأنَّه استقرَّ في المخيلة الصورة القبيحة والمخيفة للشيطان شبّهت الزقوم به لتقريب المعنى تبشيعاً لها وتكريهاً لذكرها[20]، لكنَّ ذلك ليس كافياً ولا يفي بالغرض، لأنَّ التشبيه مجازي وليس حسّيًّا، فهل أضحت صورة الزقوم واضحة المعالم مع المفسرين؟

لم يتمثل المفسّرون بدقة الزقوم، والدليل على ذلك أنَّ مفهومه يتداخل مع مفهومي **غسلين** و**ضريع**. ورد **الأوَّل** في سورة **الحاقة**: (فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ، وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ **غِسْلِينٍ**، لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ)[21]، وقيل فيه: هو شرّ طعام أهل النار، وقيل هو **شجرة** في جهنم، وقيل الغسلين الدم والماء يسيل من لحومهم، وقيل: صديد أهل النار[22]، وقيل عن ابن عباس: «ما أدري ما الغسلين؟ ولكنّي أظنه الزقوم».[23]

وجاء **الثاني** في سورة الغاشية: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ، عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ، تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً، تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ، لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ **ضَرِيعٍ**، لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ)[24]، قيل فيه: هو **شجر** من نار، وقيل هو **الزقوم**، وقيل هو الحجارة. وقيل هو الشبرق: نبات يسميه أهل الحجاز في الربيع الشبرق، فإذا يبس في الصيف يُسمَّى الضريع وهو سمٌّ، وهو شجرةٌ ذات شوكٍ لاطئةٍ بالأرض.[25]

17- المصدر نفسه، م.م، ج 7، ص 2977.

18- المصدر نفسه، ج 5، ص 2106.

19- المصدر نفسه، ج 7، ص 2977.

20- انظر المصدر نفسه، م.م، ج 7، ص 2977.

21- الحاقة 37-69/35.

22- انظر المصدر نفسه، م.م، ج 8، ص 3614.

23- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

24- الغاشية 88/2-7.

25- انظر **تفسير ابن كثير**، م.م، ج 8، ص 3763.

وإضافة إلى مصطلح الزقوم هناك مصطلحان آخران، وهما: **الصعود والويل**. فقد روى ابن أحمد القاضي أنَّ جبالاً في الجحيم يقال لها **صعود**[26]، وأنَّ من أوديتها هناك **الويل**[27]، فإذا ما عدنا إلى التفاسير يظهر معناها ملتبساً، إذ يوجد لها أكثر من معنى، فعبارة **صعود** الواردة في آية: (سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً)[28] قيل فيها: «**جبل** من نار يصعد فيه (أي الكافر) سبعين خريفاً ثمَّ يهوي به كذلك فيه أبداً»[29]، وهو المعنى الذي انتصر له ابن أحمد القاضي. وقيل أيضاً: هو **صخرة** عظيمة يُسحب عليها الكافر على وجهه، وقيل: **هو المشقة من العذاب**، أو عذاب لا راحة فيه.[30] ونلاحظ أنَّ هذا المعنى قريب ممَّا قيل في **صعداً** (وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً **صَعَدًا**)[31]، فقد قيل: هو مشقة لا راحة فيها، وقيل: هو **جبل** في جهنم، وقيل: **بئر** فيها.[32]

وينسحب الوضع أيضاً على **الويل**، فقد ذكر أنَّه وادٍ في جهنم، وهو المعنى المذكور في المصدر، لكنَّ قراءة تفسير آية: (**فَوَيْلٌ** لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثمناً قَلِيلاً)[33] تبيّن أنَّ معاني الويل مختلفٌ فيها[34]، فالويل:

- صديد في أصل جهنم.
- وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره.
- جبل في النار.
- السعير من العذاب.
- شدّة الشرّ والهلاك والدمار عند أصحاب اللغة، ويل لمن وقع في المهلكة وويح لمن أشرف عليها. والويل تفجع. قال الخليل: في معنى ويل، ويح وويس وويه وويك ووويب، ومنهم من فرَّق بينها.

26- انظر **دقائق الأخبار**، ص 37.

27- انظر المصدر نفسه، ص 39.

28- المدثر 17/74.

29- **تفسير ابن كثير**، م.م، ج 8، ص 3657.

30- انظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

31- الجن 17/72.

32- انظر **تفسير ابن كثير**، م.م، ج 8، ص 3637.

33- **البقرة** 79/2.

34- انظر **تفسير ابن كثير**، م.م، ج 1، ص ص 306-307.

نشأ مصدرانا، مثل كلّ مصنَّفات **أدب القيامة**، عن «التفعيل المتخيّل للممكن القرآني»[35]، بمعنى «تحويل ما هو كامن في النص القرآني كمون الوجود بالقوَّة والإمكان إلى صور متحققة «فعلاً» في نطاق المتخيّل دائماً»[36]، قام هذا التحويل بالأساس على التأويل، ومسألة التأويل هذه تطرح دائماً إشكاليَّة المسافة الفاصلة بين **القرآن** والمفسر والحقيقة، فعمل المفسر هو سعي للإمساك بالحقيقة، ثم الإيهام بها. لكنَّ الإيهام بحقيقة ما هو انتصار لتصوُّر ولأيديولوجيا بعينها. لا يلبث العمل التأويلي للمفسر أن تتحوَّل الكلمات معه إلى طلاسم، لا لأنَّ كلمات كثيرة غامضة، فهي كذلك بطبيعتها، بل لأنَّ تعدُّد المفاهيم واختلافاتها يضع القارئ في متاهة المعنى، ويصبح كلُّ مفهوم هو مشروع مفهوم، ويظلُّ المعنى في جميع الأحوال مفقوداً.

3.1. تلفيظ الصمت

يبدو **القرآن** أحياناً نصَّاً ضنيناً حيث لا إجابات شافية، فكلما صمت عن مسألة بعينها كان مجال المتخيّل فسيحاً كي يملأ البياض ويسدّ الفراغ، وآية ذلك مثلاً أنَّ **القرآن** لم يشر إلى مصير الحيوانات، فاشتغلت بعض النصوص الحافَّة **بالقرآن** بهذا الموضوع. وكأنَّها في ذلك تسدُّ ثغرة، وكأنَّها أيضاً تجتهد للإلمام بعالمها الأخروي، لأنَّ الإنسان بطبعه ينشدّ إلى كلّ ما يتجاوز إمكاناته، وليس ثمَّة أفضل من المتخيّل كي يعبّر عن ذلك.

ومبحث الحيوان أحد المباحث المهمَّشة في الفكر الإسلامي، فالمصنفات الإسلاميَّة الكلاسيكيَّة التي قاربت موضوعات الفردوس والجحيم كانت تخوض في موضوع الحيوان باحتراز شديد، كأن تكتفي بذكر حيوانات بعينها (ناقة، حصان، طير)، لكنَّ ابن أحمد القاضي أورد نصاً، على قصره[37]، نزعم أنَّه مهم وقادر على أن يدلي بدلوه في مسألة الحيوان. ولعلّ الإشكال الذي يطرح في البداية: هل للحيوانات أرواح، وهل ستبعث، وهل ستحشر، ويتمّ فيها حكم الله مثل البشر؟ وهل سيكون لها حيز مكاني في الفردوس أو في الجحيم؟[38]

35- فرج بن رمضان، **القص، التخيل، السخرية في رسالة الغفران**، م.م، هامش ص 177.

36- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

37- انظر **دقائق الأخبار**، ص 29.

38- أكدت الباحثة فرانسواز أرمنغود (Françoise Armengaud) في مقال لها بعنوان: «الحيوانات في الأديان» Les animaux dans les religions أنَّ الفن والأسطورة هما المجالان اللذان قاربا بشكل إيجابي موضوع الحيوانات في العالم الآخر، وأبرزت أيضاً أنَّ المتخيل الديني همَّش هذا المبحث، لا سيما وأنَّ كلّ التيولوجيين لم يقاربوا هذا الموضوع. للتوسّع انظر:

«Les animaux dans les religions», in Le grand atlas des religions, Encyclopaedia Universalis, France, 1990, p. 324.

ذكر في **دقائق الأخبار** أنَّ لملك الموت خليفة مهمَّته «قبض أرواح السباع والبهائم»[39]، وقيل يوجد في الصور من الأبواب بعدد الأرواح، منها أرواح الأنبياء والملائكة والجنّ والإنس والشياطين و«أرواح الحشرات والهوام».[40] إذاً هي أرواح ستبعث كغيرها من الأرواح، فأيّ مصير ينتظرها؟

ذكر المؤلفان أنَّ الفصل في القضاء سيكون بداية مع عنصر الحيوان، فصل قيامه عدل حتى أنَّه يقتص للجماء من القرناء.[41] لكنَّ الغريب في الأمر أنَّه متى تحقق العدل الإلهي ينقرض الحيوان[42]، باستثناء بعضها، وهي: ناقتا صالح ومحمَّد، وعجل إبراهيم، وكبش إسماعيل، وبقرة موسى، وحوت يونس، وحمار عزير، ونملة سليمان، وهدهد بلقيس، وكلب أصحاب الكهف.[43] ويلفتنا في هذا القول أنَّ كلَّ أصحاب هذه الحيوانات رسل وأنبياء وصالحون، وهذا ما منح تلك الحيوانات ميزة خاصَّة، إذ يؤكّد جميعها تجلي المقدَّس، وفضلاً عن ذلك وجدت حيوانات أخرى جاء الحديث عنها عرضاً، وهي الإبل والخيل والطير.

لم تذكر مثلاً حيوانات صوَّرها الفن الباليوليتي (Art paléolithique) الذي خلَّد أشكالاً فنيَّة عديدة، عبَّر من خلالها الإنسان الدّيني عن علاقته بالحيوان على غرار ما هو موجود في الكهوف من رسوم جداريَّة، وفي المقابر وما احتوته التوابيت. فهذا الفن ترجم علاقة الإنسان بالحيوانات التي كانت آلهة وشياطين وأوثاناً وأسلافاً وقرابين.[44] وجدت في طيبة (Thèbes) توابيت حوت قردة مقدَّسة، ويُعدُّ القطّ من الحيوانات المقدَّسة أيضاً في مصر القديمة، وللذئب كذلك أهميَّة لدى القبائل المغوليَّة (Les tribus mongoles) لكونه من الأسلاف.[45]

تُقصى إذاً أغلب الحيوانات من فردوس المسلمين، فلم تذكر سوى الحيوانات المرتبط بها بيئيَّاً وثقافيَّاً واقتصاديَّاً. فماذا عن حيوانات أخرى تضاهي أنعام العرب أهميَّة على غرار الفيل بالنسبة إلى الهنود والكلب

39- **دقائق الأخبار**، ص 7.

40- المصدر نفسه، ص 20.

41- انظر **دقائق الأخبار**، ص 29. و**الدرر الحسان**، ص 27.

42- "ثم يقول الله تعالى للوحوش والبهائم كونوا تراباً". **دقائق الأخبار**، ص 29 وانظر **الدرر الحسان**، ص 27.

43- انظر **دقائق الأخبار**، ص 29.

44- «Les animaux dans les religions», op.cit, p. 324.

45- Ibid, p. 324.

بالنسبة إلى الأسكيمو؟[46] ويغيب الخنزير مثلاً. قد يعكس ذلك تاريخاً مغيباً، تاريخاً مرتبطاً بالطوطميَّة (Totémisme)[47] (رغم أنَّ موضوع الطوطميَّة العربيَّة محل جدل بين وجودها وانعدامها).[48]

ولا حديث عن الغنم، وهذا غريب، نظراً لوجود أحاديث نبويَّة نوَّهت بالغنم واعتبرتها من حيوانات الجنَّة على غرار: «الغنم من دواب الجنَّة فامسحوا رغامها وصلّوا في مرابضها». ولا حديث كذلك عن الحوت على الرغم من وجود أحاديث نبويَّة تروي أنَّ أوَّل شيء يأكله أهل الفردوس عندما يدخلونه زيادة كبد الحوت. والحديث عنه يفترض وجوده، لكنَّه غائب في مدونتنا.

وصفوة القول إنَّ اشتغالنا بمبحث الحيوان أردناه مثالاً من أمثلة المشاغل التي لم تأخذ حظَّها من الدراسة في الفكر الإسلامي الوسيط. وهكذا تبيَّنا بعض ملامح فردوس المسلمين، وهو يضمُّ حيواناته المحدودة والمنتقاة تماماً مثلما انتقى سكانه. فكيف لمسلم هندي مثلاً أن يتجاوب مع هذا الخطاب، وهو يعلم أنَّه لا موضع لفيله في فردوس يحتكره العربي بحيواناته وكلّ ما يربطه ببيئته وثقافته.

والحاصل أنَّ محاولتنا في إبراز آليَّات اشتغال المتخيّل الإسلامي لا تستوفي حتماً كلَّ الآليَّات التي يمكن استخراجها إذا ما نقبنا في مصنفات أخرى؛ وفي ضوء ما قدَّمنا يمكن أن نتبيَّن أهمَّ خصائص المتخيّل الإسلامي.

2. خصائص المتخيّل الإسلامي

1.2. متخيل تسريدي

نحن مع المصدرين أمام مجموعة من الأخبار نسبت إلى سلط مرجعيَّة مختلفة، والمؤلف هنا سواء أكان ابن أحمد القاضي أم السيوطي يوهم أنَّه لا يبتدع أخباراً، لكنَّ النظر العميق في المصدرين يدفعنا إلى التساؤل: هل نحن إزاء سرد خبري واقعي أم أمام سرد قصصي تخييلي موهم بالواقعيَّة؟ وهل نحن إزاء

46- انظر **جغرافيَّة الملذات**، م.م، ص 272.

47- يُعتبر مبحث الطوطميَّة من المباحث المهمَّة، والدراسات فيه عديدة على غرار ما كتبه فرويد (Sigmund Freud) في كتابه: **الطوطم والتابو** (*Totem et tabou*) أو رونيه جيرار (René Girard) في كتابه: **العنف والمقدَّس** (La violence et le sacré) أو لفي ستروس (Claude Lévi-Strauss) في كتابه **الفكر البري** (L'esprit sauvage). والطوطم (Totem) هو «حيوان يؤكل لحمه، مسالم أو خطرٌ مخيف، وفي النادر شجرة أو قوَّة طبيعيَّة (ماء، مطر) ذو علاقة خصوصيَّة مع كامل العشيرة. فالطوطم هو أولاً الأب الأوَّل للعشيرة. ومن ثمَّ الروح الحامية لها [...] من أجل ذلك يخضع أبناء الطوطم لالتزام مقدَّس رادع ذاتياً يقضي بألا يقتلوا طوطمهم وأن يستغنوا عن لحمه. ولا ينحصر الطوطم بحيوان معيَّن أو بكائن مفرد، بل يشمل جميع أفراد النوع». فرويد، **الطوطم والتابو**، تعريب بو علي ياسين، ط 1، دار الحوار، اللاذقيَّة، 1983، ص 23-24. وانظر جواد علي، **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، م.م، ج 1، ص 518 وما بعدها.

48- انظر **تاريخيَّة الدعوة المحمَّديَّة في مكة**، م.م، ص 48.

أديب يختلق أخباراً فيوهم بمصداقيتها أم أمام ناسخ ينسخ أخباراً من صحف مدوَّنة، أم أمام جامع ينقل الأخبار مشافهة وسماعاً؟

لقد تطوَّر مفهوم الخبر تاريخيًّا[49] فاتَّسعت دائرته «اتساعاً يعسر الإلمام به»[50]، وهذا ما فصَّل فيه القول محمَّد القاضي في كتابه **الخبر في الأدب العربي**. ويمكن القول إجمالاً إنَّ من معاني الخبر العلم والإعلام، والخبر ما أتاك من نبأ عمَّن تستخبر، والخبير العالم بالخبر والمخبر عنه، ومن معانيه الصدق والصحَّة، وهذا يعني أنَّ الهدف من الخبر نقل الوقائع على حقيقتها. وإذا كان الخبر بشكل عام يخضع لثنائيَّة صدق/كذب، كما اهتمَّت بذلك العلوم الشرعيَّة واللغويَّة بشكل خاص، فإنَّ الأمر بالنسبة إلينا يستمدُّ أهمّيته من ذاته، حيث نطلق مع الخبر باعتباره نتاجاً خياليًّا كي نبلغ حقيقة معيَّنة.

الثابت أنَّنا لسنا أمام سرد خبري واقعي يؤرخ لوقائع ويوثق لها، بل أمام سرد متقدّم يتكلّم عن أحداث لم تقع بعد، وإن كانت أحداث العالم الأخروي الموصوف في مصدرينا تروى بصيغة التحقق، فالزمان المستقبلي المنتظر تحدثنا عنه وكأنَّه كان وانتهى أمره، فصرنا بذلك في الماضي. وهذا ما يدفع إلى الحيرة والتساؤل: كيف يفترض أن نتعامل مع أحداث العالم الأخروي الإسلامي في مصنفات **أدب القيامة** بشكل عام؟

هل نتكلم عنها بصيغة التقدير والاحتمال بحكم أنَّها في حكم الغيب، أم نتكلم عنها بصيغة التحقق؟ المفارقة هنا أنَّ عالم الآخرة هو من علم الغيب ولا يعلم الغيب إلا الله، وفي المقابل كلُّ المسلمين فيما يتعلق بأدق تفاصيل العالم الأخروي يعلمون علم هذا الغيب. والإشكال أنَّ السرد المتقدّم يُعدُّ من أهمّ خصائص السرد القصصي، ولعلَّ أهمَّ ما يسمه طبيعته الاستشرافيَّة، والرأي عندنا أنَّنا إزاء سرد قصصي تخييلي يعمل جاهداً على إيهامنا بالحقيقة، فمؤلف مصنف ترتبط أحداثه بعالم ما بعد الموت، وإن كان يبدو ناقلاً في بعض ما يذكره، موهماً القارئ بذلك من خلال السند أو الإشارات التي تحيل على السند، إلا أنَّه في مجمل مؤلفه متصرف في الأخبار مؤول لها، وهو يتبنَّى معاني بعينها ويقصي معاني أخرى، وهو يستفيض في التفاصيل، هو أقرب إلى المبدع.

لقد ميّز الفكر الديني الإسلامي فيما يتعلق بمبحثنا بين صنفين من المؤلفات: صنف **أوَّل** يعبّر عن الأخبار الدينيَّة الصحيحة، وصنف **ثانٍ** ينبّه إلى الموضوع منها والمجانب للحقيقة. لكن إذا صحَّت أخبار تتعلق بالعالم الأخروي، فعلى أيّ أساس لا تصحُّ أخبار أخرى والحال أنَّ جميعها، صحيحها وموضوعها، نتاجات خياليَّة

49- انظر محمَّد القاضي، **الخبر في الأدب العربي: دراسة في السرديَّة العربيَّة**، ط 1، منشورات كليَّة الآداب، منوبة تونس، ودار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 46-58.

50- المرجع نفسه، ص 79.

تمدُّنا بأخبار عجيبة تتجاوز حدود العقل؟ وهل بإمكان القارئ أن يميز بين الخبر الصحيح والخبر الموضوع.

وحسبنا هنا مقارنتنا لأخبار متشابهة وردت في **لآلئ**[51] السيوطي و**دُرره**:

اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة	الدرر الحسان
«إذا أراد الله أن يدخل أهل الجنَّة الجنَّة بعث الله ملكاً، [...] ومعه عشر خواتيم من خواتيم الجنَّة هديَّة من ربّ العالمين فيضعها في أصابعهم، مكتوب في أوَّل خاتم طبتم فادخلوها خالدين، وفي الثاني مكتوب [...]، وفي الثالث [...]، وفي الرابع مكتوب [...]، وفي الخامس مكتوب [...]، وفي السادس مكتوب [...]، وفي السابع مكتوب [...]، وفي الثامن مكتوب [...]، وفي التاسع مكتوب [...]، وفي العاشر [...]».	«يقول الله عزَّ وجلَّ: مرحباً بعبادي وزوَّاري، يا ملائكتي ختموا عبادي [...] فيختم كلّ إنسان بعشرة خواتم [...] مكتوب على خاتم الإبهام سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين، ومكتوب على الخاتم الثاني [...] ومكتوب على الخاتم العاشر [...]».
«سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ عن هذه الآية (ومساكن طيبة في جنات عدن)، قال: قصر من لؤلؤة، في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كلّ دار سبعون بيتاً من زبرجدة خضراء، في كلّ بيت سبعون سريراً، على كلّ سرير سبعون فراشاً من كلّ لون، على كلّ مائدة سبعون لوناً من الطعام، في كلّ بيت سبعون وصيفة».	«بين كلّ شجرتين من الشجر سبعون ألف قصر، في كلّ قصر سبعون ألف سرير من الذهب [...] على كلّ سرير سبعون فراشاً ونمارق من السندس والاستبرق، حول كلّ سرير سبعون خاتماً، في يد كلّ خادم قدح من ذهب، في كلّ قدح سبعون لوناً من الشراب...».
«إنَّ في الجنة شجرة يخرج من أعلاها الحلل ومن أسفلها خيل بلق من ذهب مسرجة ملجمة بالدر والياقوت، لا تروث ولا تبول ذات أجنحة ...».	«يخرج من أعلاها الحلل، ومن أسفلها خيل ذات أجنحة مسرجة بالدر والياقوت».
«إنَّ في الجنة لسوقاً ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من النساء والرجال، إن اشتهى الرجل صورة دخل فيها».	«إنَّ الرجل من أهل الجنَّة إذا رأى صورة وأعجبته صار مثلها وزالت عنه الصورة التي كان فيها».
تقول الحور: «نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الراضيات فلا تسخط*، ونحن الناعمات فلا نبأس، طوبى لمن كان لنا وكنَّا له».	«نحن الخالدات فلا نفنى أبداً، نحن الناعمات فلا نبيس أبداً، نحن الراضيات فلا نسخط أبداً، نحن المقيمات فلا نظعن أبداً، نحن الكاسيات فلا نعرى أبداً، نحن الضاحكات فلا نبكي أبداً، نحن الصحيحات فلا نسقم أبداً، طوبى لمن كان لنا وكنَّا له».

51- انظر السيوطي، **اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة**، ط 1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 1996، ج 2، ص 575- 380.

*- كذا في الأصل، والصواب حسب المعنى: نسخط.

«مرحباً بعبادي وخلقي ووفدي وجيراني وزوَّاري أطعموهم [...]، اسقوهم [...]، فكهوهم [...]، أكسوهم [...]، طيبوهم [...]، ثم يقول مرحباً بعبادي وخلقي ووفدي وزوَّاري وجيراني، أكلوا وشربوا وفكهوا وكسوا وطيبوا، وعزتي وجلالي لأرينهم وجهي، فيتجلى لهم ربُّ العزة عزَّ وجلَّ».	بعد أن أطعم المؤمنين يقول الله: «اسقوا عبادي [...] فكهوا عبادي [...]، اكسوا عبادي [...] ختموا عبادي [...]، خلخلوا عبادي [...] طيبوا عبادي [...] أطربوا عبادي [...]»، ثم يرفع الحجاب بين الله وعباده.

إنَّ أهمَّ ما يمكن تأكيده في هذا المستوى أنَّ المتخيّل الإسلامي يشتغل في صلب الموضوعات، وبالمنهج نفسه في جلّ مصنفات **أدب القيامة**، العالمة والشعبيَّة، الصحيحة والموضوعة، في ضوء ذلك يمكن القول إنَّ صور الفردوس والجحيم مثلما تجلّت في مصدرينا وفي كلّ المصنفات التي اهتمَّت بالعالم الأخروي، وإن استندت إلى النصوص التأسيسيَّة، (إذ اللافت أنَّ أيَّ مؤلف وهو يصف مكاناً ما أو حدثاً ما يدعم كلامه بآية قرآنيَّة، وكأن الآية نزلت فعلاً في ذلك السياق)، هي إبداع إنساني وهي أقرب إلى الأدب منها إلى أيّ شيء آخر. ومثلما يحاول المرء فهم إيحاءات لوحات فنيَّة تعبّر عن العالم الأخروي وهو يستنطق الألوان والأشكال، ومثلما يحاول التركيز على الحركة والصورة والزاوية التي تؤخذ منها ونوعيَّة الإضاءة ونوعيَّة الموسيقى وغير ذلك في عمل سينمائي، ومثلما يحاول مؤرخو الأديان استنطاق النقوش وبقايا الأشكال الفنيَّة والكتابات الطلسميَّة لمعرفة تصوُّرات الثقافات البائدة، فإنَّ قارئ مصنَّفات **أدب القيامة** مطالب بأن يركّز في الكلمات وما وراءها بما أنَّ عالم ما بعد الموت كائن في اللغة. وهنا لا بدَّ من إيلاء الأدب والفن بشكل عام أهميَّة كبيرة في دراسة المتخيّل، كما ذهب إلى ذلك **لوغوف**[52]، ووصل ذلك بالواقع والتاريخ والدين، الأمر الذي يستدعي ضرورة إزالة الحواجز الأكاديميَّة بين مختلف الاختصاصات المعرفيَّة.[53]

2.2. متخيّل تشخيصي

لا يستقيم الحديث عن المتخيّل بمعزل عن التشخيص، إذ الإنسان شغوف بكلّ ما هو حسّي. وهذا ما يفسّر تحوُّل الأفكار الدينيَّة المجرَّدة الموجودة في **القرآن** إلى قصص، لأنَّ التشخيص هو الأقدر على الإقناع والتأثير، فهو يمسُّ الأوتار الحسَّاسة، وليس غريباً أن نجد مكوّنات العالم الأخروي كلها، على النحو الذي فصَّلنا فيه القول في الفصلين الثالث والرابع، مشخّصة في مختلف تفاصيلها وأجزائها، والملاحظ هنا هو النزعة نحو تجسيد كلّ تلك المكوّنات، مثل الموت الذي لم يعد حالة فيزيائيَّة بل أضحى كائناً عملاقاً مرعباً، وكذلك الدنيا والعمل الصالح والعمل الخبيث والمال والميزان والصراط والجحيم وغير ذلك من

52- يقول في مقدّمة كتابه "**المتخيل الوسيط**»:

«Qui s'intéresse à l'imaginaire d'une époque doit regarder du côté des productions caractéristiques de cet imaginaire: la litérature et l'art», Jacques Le Goff, L'imaginaire médiéval, op.cit, Préface, p. XVIII.

53- Ibid, pp. XVIII-XIX.

الصور. وفضلاً عن ذلك ثمَّة نزعة نحو تضخيم مكوّنات العالم الأخروي كلها على غرار الأفاعي والعقارب والزبانية والمذنبين والأشجار. ولعلّنا لا نخطئ لو قلنا إنَّ الآخرة الموصوفة هي صدى الدنيا، إذ كلّ مؤثثات العالم الأخروي لها مرجعيَّة دنيويَّة، فقط يقع تحويرها وتضخيمها.

3.2. متخيّل تعويضي

كلُّ ما هو مفقود في الدنيا ومشتهى يُعوَّض كثرة وتنوُّعاً ولا تناهيًّا في الآخرة، فتحضر النعم الحسيَّة حضوراً مكثفاً: وفرة الأطعمة والأشربة واللباس والمجوهرات الثمينة والقصور والنساء والجنس والأنهار والأشجار وما إلى ذلك من النعم. وصفوة القول إنَّ وصف الفردوس جاء استجابة لكلّ الرغبات والانتظارات وللإشباع النفسي تعويضاً لكلّ حرمان دنيوي. ولم نفصّل القول هنا لأنَّ ما ذكرناه في الفصل الثالث كان أبرز مثال لتحقّق الرغبات والأحلام.

4.2. متخيّل وعظي

هو كذلك لأنَّه يحضُّ على الأخلاق الفاضلة ويرقّق القلوب ويرهّب من العاجلة ويرغّب في الآجلة، وما صور الفردوس والجحيم سوى مراوحة بين هذا وذاك، ونجد صدى لهذه النزعة في جميع مادة الكتابين، لهذا تكثر عبارات من قبيل: «رأيت الدنيا مكّارة غدّارة»[54]، «الدنيا سمٌّ قاتل والزهد ترياقها»[55]، لا تغركم الدنيا كما غرتني»[56]، أو القول مثلاً: «ولو سمع أهل الدنيا رنين ذلك الخلخال (الموجود في الجنة) لماتوا كلهم شوقاً إلى الجنة»[57]، «وقد جاء أنَّ أهل الدنيا لو رأوا ما في الجنَّة لماتوا شوقاً إليها».[58]

والحقيقة أنَّ المنزع الوعظي الذي يبرز من خلال الخطاب الترهيبي والترغيبي لا ينسحب فقط على مصدرينا، بل على كلّ مصنفات **أدب القيامة** التي عدّت تذكرة للإنسان، لعله بالعمل الصالح يحتظر بحظار منيع من النار، وفي ذلك يقول القرطبي: «فإنّي رأيت أن أكتب كتاباً وجيزاً يكون تذكرة لنفسي وعملاً صالحاً بعد موتي في ذكر الموت وأحوال الموتى وذكر الحشر والنشر والجنَّة والنَّار».[59]

54- انظر **دقائق الأخبار**، ص 6.
55- المصدر نفسه، ص 9.
56- المصدر نفسه، ص 12.
57- **الدرر الحسان**، ص 35.
58- المصدر نفسه، ص 37.
59- **التذكرة في أحوال الموتى**، م. م، ص 7.

5.2. متخيّل تناصّي (Intertextuel)

يعتبر مجال المتخيّل الإسلامي مجالاً تناصيًّا بامتياز، إذ نهل أساساً من النصّين التأسيسيين للثقافة الإسلاميَّة، وهما **القرآن** والحديث النبوي، وكذلك ما اختزل في المتخيّل الجمعي من رواسب فترة ما قبل الإسلام، واقتبس أيضاً العديد من التصوُّرات من ثقافات عديدة وأديان مختلفة، ولأهميَّة ذلك سنتوسع في هذه المسألة في الفصل الأخير من هذا العمل. نريد الإشارة فقط إلى أنَّ ظاهرة التناص تبرز الرغبة في إضفاء المشروعيَّة على ما يقال بنصوص لا جدال حولها، من خلال التوظيف المستمرّ للقرآن والحديث النبوي، وتبرز أيضاً سلطة السلف والذاكرة التي بقيت منشدَّة إلى الوراء، كما تبرز هجرة الأساطير والتصوُّرات والأفكار من ثقافة إلى أخرى.

هكذا سعينا في هذا الفصل إلى عقد مقارنة بين جملة من المشاهد، وحاولنا رصد أبرز آليَّات اشتغال المتخيّل الإسلامي وخصائصه. وصفوة القول إنَّ ما ذكرناه من آليَّات وخصائص لا يستوفي حتماً لا هذه ولا تلك، فمزيد من النظر والتعمُّق في نصوص أخرى من شأنه أن يعدّل منها وأن يعدّدها ويوسع بذلك دائرة البحث.

انتهينا في هذا الفصل إلى القول إنَّ المتخيّل الإسلامي متخيّل تناصي، فما هي أهمُّ المرجعيَّات التي نهل منها صوره واقتبس، وهو يؤسّس بنيانَ عالمَيْ الفردوس والجحيم؟

لائحة المصادر والمراجع:

(رتّبنا هذه القائمة ترتيباً ألفبائيًّا دون اعتبار «ابن» و«أبو»)

المصادر

1. الأساسيَّة

- السيوطي (جلال الدّين، تـ 911هـ/1505م)، **الدرر الحسان في البعث ونعيم الجنان**، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- القاضي (عبد الرحيم بن أحمد، تـ 596هـ/1200م)، **دقائق الأخبار في ذكر الجنَّة والنار**، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- **القرآن** الكريم (رواية حفص عن عاصم).
- مخطوط **الدرر الحسان في البعث ونعيم الجنان**، بالمكتبة الوطنيَّة، تونس، ورقمه Mss 413.
- مخطوط **دقائق الأخبار في ذكر الجنَّة والنار**، بالمكتبة الوطنيَّة، تونس، ورقمه 1117Mss

2. التكميليَّة

- السيوطي: **اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة**، طبعة 1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 1417هـ/1996م.
- ابن عبَّاس، (تـ 68هـ/687م)، **الإسراء والمعراج**، مكتبة المنار، تونس، د. ت.
- القرطبي، (شمس الدّين، تـ 671هـ/1272م) **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**، تحقيق محمَّد عبد القادر عطا، دار التقوى للتراث، القاهرة، د. ت.
- ابن كثير، (أبو الفداء إسماعيل، تـ 774هـ/1372م): **تفسير القرآن**، تحقيق محمَّد إبراهيم البنا، طبعة 1، دار القبلة للثقافة الإسلاميَّة، مؤسّسة علوم القرآن، دار ابن حزم، السعوديَّة، دمشق، بيروت، 1419هـ/1998م.
- المحاسبي، (الحارث ابن أسد، تـ 243هـ/857م)، **التوهّم؛ رحلة الإنسان إلى عالم الآخرة**، طبعة 1، دار ابن حزم، بيروت، 1424هـ/2003م.

المراجع

1. الكتب العربيَّة والمترجمة

- أركون (محمَّد)، **الفكر الإسلامي قراءة علميَّة**، تعريب هاشم صالح، طبعة 2، مركز الإنماء القومي، بيروت، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، 1996.
- جعيط (هشام)، **تاريخيَّة الدعوة المحمديَّة في مكَّة**، طبعة 1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2007.
- الجمل (بسَّام)، **ليلة القدر في المتخيل الإسلامي**، طبعة 1، مؤسَّسة القدموس الثقافيَّة، دمشق، 2007.
- بن رمضان (فرج)، **القص، التخيل، السخرية في رسالة الغفران**، طبعة 1، منشورات دار البيروني للنشر وكليَّة الآداب بصفاقس، 1996.
- علي (جواد)، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، طبعة 2، جامعة بغداد، 1413هـ/1993م.

- القاضي (محمَّد)، **الخبر في الأدب العربي: دراسة في السرديَّة العربيَّة**، طبعة 1، منشورات كليَّة الآداب بمنوبة، تونس، ودار الغرب الإسلامي، بيروت، 1419هـ/1998م.
- فرويد، **الطوطم والتابو**، تعريب بو علي ياسين، ط 1، دار الحوار، اللاذقيَّة، 1983.

2. القواميس والموسوعات

- **موجز دائرة المعارف الإسلاميَّة**، طبعة 1، مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1419هـ/1998م.

3. المراجع الأجنبيَّة

- الكتب

- BACHELARD (Gaston), La psychanalyse du feu, Gallimard, France, 1972.
- LE GOFF (Jacques), L'imaginaire médiéval, Gallimard, Paris, 1985.

- الموسوعات

- Encyclopédia Universalis, France, 1990, Françoise Armengaud, «Les animaux dans les religions».

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2017

جميع الحقوق محفوظة © 2017